مقاصد السور القرآنية
عرض ودراسة

د. شافي سلطان العجمي(*)

مقدمة:

أحمد الله وحده لا شريك له، وأصلي وأسلم على نبيه محمد، وعلى آله وصحبه وبعد:

فإن تدبر قول المتكلم وتفهمه وربط أوله بآخره من أقرب الوسائل لمعرفة مقصوده وغرضه من الكلام، ذلك أن الكلام لا يقع في القلب إلا إذا عرف مقصوده وموضوعه، ومن عرف المقصود انكشف له الكلام من مقدمته ولو لم ينتظر بقيته؛ لأن البلغاء يشيرون إلى مقصودهم في مقدماتهم، ولقد جاء القرآن على أكمل وجه من أوجه البلاغة والبيان كما قال تعالى: ﴿**قُرآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾(١). وقال عز وجل: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ**

(*) المدرس بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الكويت.

(١) الزمر آية (٢٨).

الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ﴾[١].

ووصفه بنفي العوج عنه يشمل نفي ذلك في الألفاظ والمعاني؛ لعموم الآية ولأن حمله على هذا المعنى أتم وأشرف وأكمل[٢].

وهذا الكمال في تصاريف الكلام أبهر عقول العرب، وأعجزهم عن أن يأتوا بمثله، فهو مع كونه مجموعًا من حروفهم ومقاصدهم إلا أنه معجز محكم مفصل.

وقد كانت مقاصد القرآن بينة لكل من سمعه، فهو يدعو إلى الألوهية وينفي الشرك في كل سورة من سوره إما بصريح العبارة أو بلطيف الإشارة.

وهذا المقصود الأكبر قد تنوعت الدلائل المبرهنة عليه، فتارة تسوق السور البراهين السماوية، وتارة تأتي التجارب البشرية ونهاية كل تجربة من خير أو شر، وتارة تجئ البراهين العقلية لإثبات أن الرسول حق وأن الوحي حق؛ لأن صدق هذين الدليلين أعظم دليل على أن عبادة الله حق.

والمقصود أن القرآن من أوله إلى آخره يدل على الله عز وجل ويثبت ألوهيته، وتتنوع السور للدلالة على ذلك، وهذا الموضوع الكبير الذي تحدث القرآن عنه قد انقسم إلى مائة وأربعة عشر موضوعًا بعدد سور القرآن، وكان لكل سورة منهجها الخاص الذي تميزت به عن غيرها، فإن لكل سورة اسمًا ولكل اسم معنى ينفرد به عن غيره، وكانت كل سورة تدور في فلك محدد لتصل إلى مقصودها، ومن أراد أن يطمئن إلى ذلك فلينظر إلى قصار السور، كالكوثر والإخلاص والمسد والماعون والفيل وغيرها، فإن الموضوع المحدد الذي تقرره هذه السور لا يخفى على أحد.

وهذه الوحدة الموضوعية المستقرة في كل سورة قد تناولها أهل التفسير بالبيان؛

---

(١) الكهف آية (١).

(٢) انظر التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور (١١ / ٣٩٨).

فمستقل ومستكثر، وكان المفسرون المتقدمون مقلين في بيان مقاصد السور لظهورها وعدم خفائها. والسبب الثاني عدم الحاجة إلى ذلك في زمانهم. والسبب الثالث أن العصر المقارن لأولئك المفسرين كان يبحث في الأسانيد والقراءات والأقوال من الإشكالات فتوجهت همة المفسرين لهذه المواضيع، وأما المتأخرون ولاسيما في القرن الثامن الهجري وما بعده فقد كثر عندهم هذا اللون المقاصدي لسببين:

السبب الأول: أن العلوم في هذا العصر قد بلغت حد النضج والنهاية في حين أن علم التفسير لم يحظ بما حظى به غيره من العلوم من التأصيل والتقعيد والترتيب فصارت همة المفسرين مقبلة نحو هذا الفن لتكميله وتتويجه بذكر المقاصد.

السبب الثاني: أن الحديث عن مقاصد الشريعة صار له شأن ولاسيما عند العز ابن عبد السلام والشاطبي فألفت القواعد والموافقات وغيرها، ولاشك أن الفهم المقاصدي للشريعة أصل لمقاصد السور.

وأما في زماننا فقد كثرت الدراسات حول مقاصد السور ولله الحمد، وهذه الدراسات متعددة المشارب متفاوتة الرأي وفيها محاسن عدة بيد أنها تشترك في ترك أمر واحد لا يكاد يوجد فيها وهو تأصيل هذا الفن وترتيبه وبيان طرقه؛ ذلك أن هذه الدراسات وما قبلها من المؤلفات اعتنت بالجانب العملي ولم تبين الجانب النظري التأصيلي الذي يضبط الفن ويوضحه ويكشف معالمه.

فأحببت أن أنحو بالبحث هذا النحو وأتولى جانب التأصيل لهذا النوع من التفسير، وقد قسمته إلى مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة:

المقدمة: وقد سبقت بين يدي الباحث، ذكرت فيها أهمية هذا العلم.

التمهيد وفيه أهمية التدبر لكتاب الله.

والمبحث الأول: تعريف مقاصد السور وتاريخها، ويتكون من مطلبين:

المطلب الأول: تعريف مقاصد السور.

المطلب الثاني: تاريخ مقاصد السور.

والمبحث الثاني: أدلة المقاصد وطرق الكشف عنها، ويتضمن أيضًا مطلبين:

المطلب الأول: أدلة المقاصد النقلية والعقلية.

المطلب الثاني: طرق الكشف عن المقاصد.

أما المبحث الثالث: أقسام مقاصد السور، فتحته ثلاثة مقاصد:

المقصد الأول: الألوهية والبعث.

المقصد الثاني: الرسالة.

المقصد الثالث: العبادات والمعاملات.

الخاتمة: وفيها نتائج البحث وأهم التوصيات.

* * *

التمهيد:

أمر الله عز وجل بتدبر كتابه في أربعة مواضع من القرآن فقال: ﴿ **أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً** ﴾(١)، وقال: ﴿ **أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** ﴾(٢)، وقال: ﴿ **أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ**

(١) النساء (٨٣).

(٢) محمد (٢٤).

جَاءهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءهُمُ الأَوَّلِينَ ﴾[1]، وقال: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾[2]، وذم الذين لا يفقهون كتابه فقال: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً ﴾[3]، وقال: ﴿ فَمَا لِهَؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً ﴾[4]، وحث في كتابه على التذكر من هذا القرآن العظيم فقال: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾[5]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[6]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[7]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلا كُفُوراً ﴾[8]، وقال: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً ﴾[9]، وقال: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً ﴾[10].

ودعا سبحانه الناس إلى تعقل كتابه فقال: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[11]، وقال: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا

(١) المؤمنون (٦٨).
(٢) ص (٢٩).
(٣) الأنعام (٢٥).
(٤) النساء (٧٨).
(٥) الرعد (١٩).
(٦) القصص (٥١).
(٧) الزمر (٢٧).
(٨) الفرقان (٥٠).
(٩) الفرقان (٧٣).
(١٠) السجدة (١٥).
(١١) الزخرف (٣).

تَعْقِلُونَ﴾(١)، وقال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(٢)، وهذه الألفاظ الثلاثة (التدبر والتذكر والتعقل) تدل على معنى مشترك وهو حسن الفهم لكتاب الله عز وجل.

والفهم الحسن لكلام الله عز وجل ينتج العمل الحسن إذا صلحت النية، والفهم السيئ ينتج العمل السيئ ولذلك حين ساء الفهم عند اليهود والنصارى ساء العمل كما قال الله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ﴾(٣)، وقال: ﴿لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾(٤).

وفهم القرآن يتفاوت بين الناس على حسب قدراتهم واجتهاداتهم، ألا ترى علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين سئل: "هل عندكم مما ليس في القرآن؟ فقال: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما عندنا إلا ما في القرآن إلا فهماً يعطي رجل في كتابه"(٥).

ولذلك اختلف الصحابة في تفسير القرآن لتفاوت الفهم بينهم، كما في قصة ابن عباس حين كان عمر يدخله مع أشياخ بدر فعجبوا ثم سألوا، فعرض عليهم عمر بن الخطاب تفسير سورة النصر فاختلفوا، ثم قال ابن عباس رأيه فوافقه عمر(٦).

ولذلك اختلف المفسرون وتعددت أقوالهم، وبحسب سعة الفهم وضيقه يكثر

---

(١) الأنبياء (١٠).

(٢) يوسف (٢).

(٣) المائدة (١٣).

(٤) البقرة (٧٨).

(٥) رواه البخاري في صحيحه كتاب الديات: باب لا يقتل المسلم بالكافر – رقم الحديث ٦٩١٥ .

(٦) رواه البخاري في صحيحه كتاب التفسير وسيأتي بتمامه – ص١٠ .

الخلاف ويقلّ، فنرى المفسر المتبحر يجمع بين الأقوال التي يظهر منها التعارض ويؤلف بينها بلفظ حسن، وآخر ينقض أقوال المفسرين لظنه معارضتها لظاهر القرآن، ولو اتسعت الأفهام لقل الخلاف كما هو الحال في القرون الثلاثة الأولى.

ومن حسن الفهم لكتاب الله عز وجل معرفة مقاصد السور كما سبق في قصة ابن عباس مع أشياخ بدر، وذلك أن معرفة المقصود من الكلام دون تنصيص على ذلك مما يشق على كثير من الناس؛ لأن المتكلم والمؤلف والخطيب ينص في حديثه على مقصوده، أما الاستنباط من كلام المتكلم ما يدل على مقصوده فهو أمر مظنون يجري فيه الاجتهاد ويتفاوت فيه الفهم.

وسيكون في البحث تأصيل لهذا الموضوع وبيان أدلته النقلية والعقلية وطرق الكشف عنه وأقسامه وهذا حديث بكر وأرجو أن أسن فيه سنة حسنة.

* * *

المبحث الأول

تعريف مقاصد السور وتاريخها

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تعريف مقاصد السور.

المطلب الثاني: تاريخ مقاصد السور.

المطلب الأول: تعريف مقاصد السور

المسألة الأولى: تعريفه باعتبار مفرداته:

(١) تعريف المقاصد: وهي جمع مقصد والمقصد مصدر ميمي مأخوذ من الفعل قصد، وقد تنوعت عبارات أهل اللغة حول هذا اللفظ، وفي ذلك يقول ابن

فارس[١] في معجم مقاييس اللغة: القاف والصاد والدال أصول ثلاثة يدل أحدها على إتيان شيء وأمه، والآخر على كسر وإنكسار، والثالث على اكتناز في شيء[٢]، وفي بعض كتب اللغة[٣] معنى رابع وهو التوسط بين شيئين لقوله تعالى: ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾[٤].

والذي يظهر للباحث أن هذه المعاني الأربعة تدور على معنى واحد وهو الإقبال على الشيء والعزيمة على فعله وإنما تتفاوت المعاني بحسب السياق الذي قيلت فيه، وقد ألمح ابن جني[٥] إلى ذلك بقوله: أصل (ق ص د) ومواقعها في كلام العرب الاعتزام والتوجه والنهوض نحو الشيء، على اعتدال كان ذلك أو جور، هذا أصله في الحقيقة وإن كان قد يخص في بعض المواضع بقصد الاستقامة دون الميل[٦].

وقد يظن بعض الناس أن بين هذه المعاني تعارضًا وليس الأمر كذلك، فإن حمل القصد على الإنكسار أو الامتلاء إنما هو لقصد الانكسار والامتلاء، أي أن أحداً قصد كسر هذه الرمح، وآخر قصد تسمين هذه الناقة، وأما المعنى الرابع وهو التوسط فإن الاعتدال بين شيئين يحتاج إلى عزم وإقبال لئلا يقع في غلو أو إجحاف.

(١) هو الإمام العلامة اللغوي المحدث أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي المالكي ومذهبه في النحو على طريقة الكوفيين توفي سنة خمس وتسعين وثلاثمائة. انظر: معجم الأدباء (٤ / ٨٠) وسير أعلام النبلاء (١٧/ ١٠٣).

(٢) ثم ذكر مثالاً على الأول وهو أقصده السهم إذا أصابه فلم يحد عنه، والثاني مثل قولهم رمح قصد، والثالث ناقة القصيد أي مكتنزة ممتلئة لحمًا. انظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس ص٨٩١ .

(٣) انظر لسان العرب (١١/ ١٧٩) ومعجم تهذيب اللغة (٣/ ٢٩٧١) والصحاح للجوهري (١/ ٤٤٣) والقاموس المحيط (١/ ٤٤٩).

(٤) سورة لقمان (١٩).

(٥) هو: إمام العربية أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي له المصنفات البديعة كالخصائص والتعريف. توفي سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة. انظر: معجم الأدباء (١٢/ ٨١) وسير أعلام النبلاء (١٧/ ١٧).

(٦) انظر لسان العرب (١١/ ١٨١).

(٢) تعريف السور : جمع سورة وأصلها من السور وهو ما ارتفع وعلا وأحاط بغيره[١] ومن سوار المرأة[٢]، ويقول ابن جرير[٣] معرفًا السورة : المنزلة من منازل الارتفاع، ومن ذلك سور المدينة سمي بذلك الحائط الذي يحويها لارتفاعه على ما يحويه[٤].

وأما المعنى الاصطلاحي فيقول الطاهر ابن عاشور : السورة قطعة من القرآن معينة بمبدأ ونهاية لا يتغيران؟ مسماة باسم مخصوص تشتمل على ثلاث آيات فأكثر[٥].

المسألة الثانية : تعريف مقاصد السور باعتباره مركبًا إضافيًا :

من خلال التعريفين السابقين للمقاصد والسور يظهر لنا أن هذا المصطلح يعرف بما يلي : "علم يعرف منه غرض كل سورة".

ولابد في مقاصد السور أن يكون المقصود واحداً لئلا يضطرب المعنى، ولا يشكل على ذلك ما دونه بعض المفسرين في مقدمات السور من أغراضها[٦]، فإن مقصودهم خلاصة مواضيع السورة ولا شك أن الفرق بين المقصود والموضوع بيِّن؛ لأن الأول غاية للثاني.

---

(١) انظر لسان العرب (٦ / ٤٢٦) والقاموس المحيط (١ / ٥٧٨) والصحاح (١ / ٥٦٣).

(٢) وقد أغرب ابن فارس حين قال : وأما سوار المرأة والأسوار ثم أسورة الفرس وهم القادة فأراهما غير عربيين – معجم مقاييس اللغة ص ٤٩٧ .

(٣) هو : محمد بن جرير الطبري المفسر الفقيه المحدث اللغوي صاحب جامع البيان وتهذيب الآثار توفي سنة عشر وثلاثمائة . انظر : سير أعلام النبلاء (١٤ / ٢٦٥)، والبداية والنهاية (١١ / ١٤٥).

(٤) تفسير الطبري (١ / ٤٦) مصطفى البابي الحلبي – ط٣ .

(٥) التحرير والتنوير (١ / ٨٤) دار سحنون.

(٦) كالفيروز آبادي والطاهر ابن عاشور.

المسألة الثالثة: الألفاظ ذات الصلة

أولاً: أهداف السور: الأهداف جمع هدف وهو الغرض ولابد أن يكون منتصبًا مرتفعًا[١] حتى تتجه الأنظار إليه، والهدف مرادف للمقصود إلا أن القصد أدل على بيان المراد من الهدف؛ لأن الهدف قد يتعدد، وأما القصد فلا يتعدد إلا بالتقييد فتقول: مقصود هذه الجملة وهذا المرضع كذا وكذا.

ثانيًا: مواضيع السور: المواضيع جمع موضوع، وهو ما جمعت كلماته في سياق واحد، والفرق بين الموضوع والمقصود أن الموضوع يطلق على الكلام المنتظم، وعلى هدف كل سياق وعلى غرض المواضيع كلها، وأما المقصود فلا يطلق إلا على شيء واحد فتقول: مقصود الرسالة كذا وكذا، وإذا أردت حمل الموضوع على المقصود فلابد من التقييد.

ونجد عند بعض المفسرين مصطلحًا آخر، وهو أغراض السورة[٢]، ويريدون بذلك مواضيع السورة، وبعضهم يقول: محاول السورة وشخصية السورة[٣]، وكل هذا متقارب ويعود إلى أهداف السورة أو مواضيعها.

وتحسن الإشارة هنا إلى علاقة مقاصد السور بالتفسير الموضوعي.

ويقصد بالتفسير الموضوعي[٤]: البيان والإيضاح لمواضيع القرآن سواء كانت في سور متعددة أو في سورة واحدة، والذي يعنينا هنا جمع مواضيع القرآن في سورة واحدة. وهذا موجود في بعض التفاسير التي تناولت مواضيع السور مثل

---

(١) معجم مقاييس اللغة ص١٠٦٥ .

(٢) كالفيروز آبادي والطاهر ابن عاشور، وذلك في مقدمة كل سورة.

(٣) مثل سيد قطب في ظلال القرآن وذلك في مقدمة كل سورة.

(٤) انظر: مباحث في التفسير الموضوعي. ص٢٣ د. مصطفى مسلم. ودراسات في التفسير الموضوعي. ص٩ د. زاهر الألمعي.

تفسير الفيروز آبادي والبقاعي والطاهر ابن عاشور، وبعض التفاسير تناولت موضوع السورة الواحد الذي تدور عليه آياتها وهذا هو مقصود السورة، وهذا قليل في كتب المفسرين، وتأتي الإشارة إليه أحيانًا كما في البرهان لابن الزبير الثقفي ومواضع من الدرر للبقاعي، وفي ظلال القرآن يلتزم سيد قطب بذكر محور كل سورة إلا أن سوراً كثيرة يكرر فيها سيد قطب نفس المحور.

وعلى ذلك فالعلاقة بين مقاصد السور والتفسير الموضوعي علاقة الفرع بالأصل، فالمقاصد أحد أركان التفسير الموضوعي.

المطلب الثاني: تاريخ مقاصد السور:

من سنن الله الكونية أن الأمور تتدرج في نشأتها حتى تكتمل سواء كانت دينية أم دنيوية، وسواء كانت حسية أم معنوية، ومن ذلك العلم؛ فإنه يبدأ شيئًا فشيئًا حتى يكتمل وبعد كماله ينتفع به في كل وقت بحسب الحاجة، ومن ذلك مقاصد السور فإن هذا العلم بدأ كغيره في ثنايا السنة والآثار، ثم في ثنايا كتب التفسير، حتى استقل كفن منفرد عن غيره، شأنه في ذلك شأن الفقه والأصول والتفسير وغيرها.

وإذا نظرنا إلى تاريخ هذا العلم فإننا نجد ظهور هذا الفن عند الصحابة وتحاورهم وتنافسهم فيه.

كما روى البخاري في كتاب التفسير(١) من حديث ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال: لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من حيث علمتم. فدعاني ذات يوم فأدخلني معهم، فما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم. قال: ما تقولون في قوله

(١) باب قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾ رقم الحديث ٤٩٧ .

الله تعالى: ﴿ إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾؟ فقال: بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا. فقال لي: أكذاك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له، قال: ﴿ إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾، وذلك علامة أجلك، ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً ﴾. فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول.

ونلاحظ أن بعض الصحابة فسر ألفاظ السورة، وأما ابن عباس فقد فسر موضوعها ومقصودها، وقد عرف ذلك من ألفاظها، ووافقه عمر على ذلك، وفي ذلك يقول ابن كثير في تفسيره(١): "وما فسر به ابن عباس وعمر رضي الله عنهم، من أن هذه السورة نعي فيها إلى رسول الله ﷺ نفسه الكريمة، وأعلم: أنك إذا فتحت مكة – وهي قريتك التي أخرجتك – ودخل الناس في دين الله أفواجًا، فقد فرغ شغلنا بل في الدنيا، فتهيأ للقدوم علينا والوفود إلينا فالآخرة خير لك من الدنيا، ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾. ولهذا قال: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً ﴾.

وورد عن ابن عباس أنه قال في سورة الليل: إني لأقول: هذه السورة نزلت في السماحة والبخل ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾(٢)، وعند التأمل في سورة الليل نجد وصف ابن عباس مطابقًا لمقصود السورة لأنها بدأت بالقسم ثم قسمت الناس إلى فريقين؛ من أعطى ومن بخل، وجزاء كل فريق.

وإذا تجاوزنا الصحابة إلى التابعين فإننا نجد قتادة بن دعامة السدوسي يقول عن سورة النحل: سورة النعم(٣). وهذه التسمية دالة على مقصودها لأنها من أولها

---

(١) (٨/٥١٢).

(٢) الدر المنثور (٦/٥٩١).

(٣) الدر المنثور (٥/١٠٧).

إلى آخرها في تعداد أصول النعم.

ونجد كذلك عمرو بن دينار يقول في سورة التكاثر: إنها نزلت في التجار(١)، والسبب في قوله هذا أن التكاثر بالأموال أكثر ما تتوجه إليه الأسماع عند العلم بهذه الكلمة.

وبعد هذين العصرين نجد المفسرين قد أشاروا إلى طرف من هذا العلم في دواوينهم فمستقل ومستكثر، والمقل منهم كان يشير إلى هذا العلم من خلال أسباب النزول، كالطبري وابن عطية، فكانوا يقولون: نزلت هذه السورة في كذا وكذا(٢)، وكانوا يستدلون بسياق الآيات ذات الموضوع الواحد(٣)، ومن المفسرين من صرح بتناسب الآيات ومقاصد السور كالزمخشري، فإنه قال: "إن من فوائد تفصيل القرآن وتقطيعه سوراً، أن التفصيل سبب تلاحق الأشكال والنظائر، وملاءمة بعضها لبعض، وبذلك تتلاحق المعاني، ويتجاوب النظم"(٤)، وقال في موضع آخر: وهذا المعنى مطابق لمعاني السورة(٥). ومثل الرازي فإنه يقول عن سورة مريم: الغرض من هذه السورة بيان التوحيد والنبوة والحشر(٦). ويقول عن سورة يس: ليس فيها إلا تقرير الأصول الثلاثة بأقوى البراهين، فابتداؤها بيان الرسالة، وانتهاؤها بيان الوحدانية والحشر(٧).

---

(١) أحكام القرآن للقرطبي (٢٠/١٦٩).
(٢) كما في سورة آل عمران، انظر: الطبري (٤/١٦١)، وابن عطية (١/٣٩٧).
وسورة الأنفال: انظر: الطبري (٩/٦٨)، وابن عطية (٢/٤٩٦).
وسورة الحشر انظر: الطبري (٢٨/٢٧)، وابن عطية (٥/٢٨٣).
(٣) انظر في تفسير الطبري (٢٧/٤٧)، (٢٦/٨)، (٢٦/١٢)، وتفسير ابن عطية (٣/٣٧٠)، (١/٣٦٠)، (٢/٥١١).
(٤) الكشاف للزمخشري (١/٢٤١).
(٥) الكشاف للزمخشري (١/٤٦٢).
(٦) مفاتيح الغيب الرازي (١١/١٩٠).
(٧) مفاتيح الغيب الرازي (١٠/٣١٠).

أما المكثرون فلعل أولهم أبو بكر النيسابوري[١]، وكان يزري على العلماء لعدم علمهم بالتناسب بين الآيات في السورة الواحدة[٢].

وللأسف لم يصل إلينا شيء من كلام أبي بكر النيسابوري، بل لم يصل إلينا من كتب التفسير ممن اعتنى بهذا الفن وأطال فيه بعد النيسابوري إلا أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي[٣] فقد اعتنى ببيان مقصود كل سورة وتناسب مواضيعها، وله في ذلك مصنف لطيف سماه: البرهان في تناسب سورة القرآن[٤].

ثم جاء بعده ابن تيمية وبعده ابن القيم وبعده الفيروز آبادي وبعده البقاعي، ولم يصل إلينا بعد ذلك من اعتنى بهذا الفن إلا في العصر الحديث. وسنقف مع كل مفسر ممن سبق ونتناول ثلاثة أمثلة من تفسيره تنبه إلى طريقة المؤلف في هذا الفن.

أولاً: مقاصد القرآن عند أحمد بن إبراهيم الزبير الثقفي:

المثال الأول: سورة البقرة: يقول المؤلف: فحصل من السورة بأسرها بيان الصراط المستقيم على الاستيفاء والكمال أخذًا وتركًا، وبيان شرف من أخذ به وسوء حال من تنكب عنه[٥].

---

(١) هو: عبد الله بن محمد بن زياد النيسابوري الفقيه المحدث، قال الحاكم: كان إمام عصره من الشافعية بالعراق، ومن أحفظ الناس للفقهيات واختلاف الصحابة، وقال الدارقطني: ما رأيت أحفظ منه. توفي سنة أربع وعشرين وثلاثمائة. انظر: طبقات الشافعية (٣/ ٣١٠) دار إحياء الكتب العربية.

(٢) البرهان للزركشي (١/ ٣٦).

(٣) الغرناطي انتهت إليه الرئاسة بالأندلس في صناعة العربية وتجويد القرآن ورواية الحديث والمشاركة في الفقه والتفسير توفي سنة ثمان وسبعمائة انظر: الديباج المذهب لابن فرحون ص٤٢.

(٤) وقد حققه د. سعيد الفلاح مدير المعهد الأعلى للشريعة سابقًا جامعة الزيتونة. تونس وقد طبعته دار ابن الجوزي سنة ١٤٢٨هـ.

(٥) البرهان: ص (٨٨).

المثال الثاني: سورة المائدة: يقول المؤلف: فحصل من جملتها الأمر بالوفاء فيما تقدمها، وحال من حاد ونقض، وعاقبة من وفى[١].

المثال الثالث: سورة الأعراف: يقول المؤلف: وصرف الخطاب إلى تسليته عليه السلام وتثبيت فؤاده بذكر أحوال الأنبياء مع أممهم، وأمر الخلق بالاعتبار بالأمم السالفة[٢].

ثانيًا: مقاصد القرآن عند أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية[٣]:

المثال الأول: قال ابن تيمية: "سورة مريم" مضمونها: تحقيق عبادة الله وحده وأن خواص الخلق هم عباده ... وتضمنت الرد على الغالين الذين زادوا في النسبة إلى الله حتى نسبوا إليه عيسى ... ثم يقول: فهذه السورة "سورة المواهب"، وهي ما وهبه الله لأنبيائه من الذرية الطيبة والعمل الصالح والعلم النافع[٤].

المثال الثاني: قال ابن تيمية: سورة "طه" مضمونها تخفيف أمر القرآن وما أنزل الله تعالى من كتبه، فهي سورة كتبه – كما أن مريم سورة عباده ورسله[٥].

المثال الثالث: قال ابن تيمية: سورة الأنبياء سورة الذكر وسورة الأنبياء الذين

---

(١) البرهان: ص (٩٤).

(٢) البرهان: ص (١٠١).

(٣) هو: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم، الحراني الدمشقي الحنبلي، أبو العباس، تقي الدين. ولد في حران سنة (٦٦١هـ)، وتحول به أبوه إلى دمشق فنبع واشتهر، وامتحن عدة مرات وأوذي وسجن بسبب آرائه العلمية، حتى مات محبوسًا بقلعة دمشق سنة (٧٢٨هـ). قال الذهبي: الشيخ الإمام العلامة، الحافظ الناقد، الفقيه، المفسر البارع، شيخ الإسلام، علم الزهاد، نادرة العصر. من تصانيفه: منهاج السنة، مجموع الفتاوى، العقيدة الواسطية.

انظر: تذكرة الحفاظ (٤/ ١٤٩٦)، الدرر الكامنة (١/ ٢٤٤).

(٤) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٣٠ – ٢٣٣) جمع ابن القاسم.

(٥) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٣٧ – ٢٣٨).

عليهم نزل الذكر[١].

ثالثًا: مقاصد القرآن عند محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزيه[٢]:

المثال الأول: سورة النحل: قال ابن القيم: سورة النعم التي عدد الله سبحانه فيها أصول النعم وفروعها[٣].

المثال الثاني: سورة ص: قال ابن القيم: فتأمل ما اشتملت عليه سورة (ص) من الخصومات المتعددة فأولها خصومة الكفار ... ثم اختصام الخصمين ... ثم تخاصم أهل النار ... ثم اختصام الملأ الأعلى ... ثم مخاصمة إبليس[٤].

المثال الثالث: سورة الإخلاص والكافرون: قال ابن القيم: وقد جمع الله سبحانه وتعالى هذين النوعين من التوحيد في سورتي الإخلاص وهما سورة ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ** ﴾ المتضمنة للتوحيد العملي الإرادي، وسورة ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** ﴾ المتضمنة للتوحيد العملي الخبري، فسورة ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** ﴾ فيها بيان من يجب لله تعالى من صفات الكمال، وبيان ما يجب تنزيهه من النقائص والأمثال. وسورة ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ** ﴾ فيها إيجاب عبادته وحده لا شريك له، والتبري من عبادة كل ما سواه، ولا يتم أحد التوحيدين إلا بالآخر، ولهذا كان

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٦٥)، وانظر: (١٥/ ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٨١، ٣٧٩)، (١٦/ ١٦٠، ٢٠٤)، (١٧/ ١٩٠)، (١/ ٣٦٧)، (٢/ ٤٣٨)، (٣/ ٣٦٥)، (٤/ ٦٣٢)، (٤/ ٢٦٥)، (٧/ ٤٦٦)، (٨/ ٢١٠)، (٩/ ٣٩)، (١٠/ ٥٢)، (١١/ ٢٥٤)، (١٤/ ٤١ - ٤٧)، (١٤/ ٤٤٨).

(٢) هو: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي، ثم الدمشقي، الحنبلي، المعروف بابن قيم الجوزيه، شمس الدين، أبو عبد الله. فقيه، أصولي، مجتهد، مفسر، متكلم، لغوي، نحوي، محدث، ولد بدمشق سنة (٦٩١هـ)، وتفقه وأفتى، ولازم ابن تيمية وسجن معه في قلعة دمشق. وتوفي سنة (٧٥١هـ). من تصانيفه: زاد المعاد، تهذيب سنن أبي داود، أعلام الموقعين.
انظر: الدرر الكامنة (٣/ ٤٠٠)، معجم المؤلفين (٩/ ١٠٦).

(٣) إعلام الموقعين (١٤/ ١٣١).

(٤) بدائع الفوائد (٤/ ٢٦٠).

النبي يقرأ بهاتين السورتين في سنة الفجر والمغرب والوتر اللتين هما فاتحة العمل وخاتمته، ليكون مبدأ النهار توحيداً وخاتمته(١).

رابعًا: مقاصد القرآن عند الفيروز آبادي:

ذكر الفيروز آبادي في مقدمة كتابه الموسوم بـ(بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز) أنه سيذكر في بصيرة كل سورة مكان نزولها وعدد آياتها وكلماتها وحروفها وأسماءها ومقصودها وناسخها ومنسوخها وما فيها من المتشابهات ثم يختم ذلك في فضائلها، وسنذكر بعض مقاصد السور عنده والتي حشد في الجزء الأول من بصائره مقاصد كل السور وهذه أمثلة تكشف شيئًا من منهجه:

المثال الأول: (بصيرة في الحمد): المقصود من نزول هذه السورة تعليم العباد التيمن والتبرك باسم الله الرحمن الرحيم في ابتداء الأمور، والتلقين بشكر نعم المنعم، والتوكل عليه في باب الرزق المقسوم، وتقوية رجاء العبد برحمة الله تعالى، والتنبيه على ترقب العبد الحساب والجزاء يوم القيامة، وإخلاص العبودية عن الشرك، وطلب التوفيق والعصمة من الله، والاستعانة والاستمرار في أداء العبادات وطلب الثبات والاستقامة على طريق خواص عباد الله، والرغبة في سلوك مسالكهم، وطلب الأمان من الغضب والضلال في جميع الأحوال والأفعال، وختم الجميع بكلمة آمين؛ فإنها استجابة للدعاء، واستنزال للرحمة، وهي خاتم الرحمة التي ختم بها فاتحة كتابه(٢).

وقد كان هذا مسلكه في كل سورة؛ حيث كان يذكر مواضيعها العامة على

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية (٢/ ٦٠)، وانظر: التبيان في أقسام القرآن: سورة الهمزة ص٨٣، والصواعق المرسلة: سورة الإنسان (٢/ ٧٦)، وعدة الصابرين: سورة الكافرون ص ١١٥ .

(٢) بصائر ذوي التمييز (١/ ١٢٩).

سبيل التقصي حتى بلغ سورة المجادلة فاختصر مواضيعها وذلك في المثال الثاني التالي :

المثال الثاني: معظم مقصود السورة بيان حكم الظهار، وذكر النجوى والسرار، والأمر بالتوسع في المجالس، وبيان فضل أهل العلم، والشكاية من المنافقين، والفرق بين حزب الرحمن وحزب الشيطان، والحكم على بعض بالفلاح وعلى بعض بالخسران في قوله ﴿ **هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾، ﴿ **هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾(١).

ونلاحظ أن المصنف يحاول أن يحصي مواضيع السورة، بيد أنه عندما بلغ سورة القارعة إلى سورة الناس حصر السورة في موضوع واحد وذلك من خلال هذه الأمثلة.

المثال الثالث: بصيرة في القارعة: ثم قال: معظم مقصود السورة بيان هيبة العرصات وتأثيرها في الجمادات والحيوانات، وذكر وزن الحسنات والسيئات، وشرح عيش أهل الدرجات، وبيان حال أصحاب الدركات في قوله: ﴿ **نَارٌ حَامِيَةٌ** ﴾(٢).

وبمثل هذا التحديد في موضوع واحد نجد أن الأمر نفسه في سورة التكاثر(٣)

---

(١) المصدر السابق (١ /٤٥٦).
(٢) المصدر السابق (١ /٤٥٦).
(٣) بصائر ذوي التمييز (١ /٥٤٠).
(٤) المصدر السابق (١ /٥٤٢).
(٥) المصدر السابق (١ /٥٤٣).
(٦) المصدر السابق (١ /٥٤٤).
(٧) المصدر السابق (١ /٥٤٥).
(٨) المصدر السابق (١ /٥٤٦).
(٩) المصدر السابق (١ /٥٤٧).

والعصر[٤] والهمزة[٥] والفيل[٦] وقريش[٧] والماعون[٨] والكوثر[٩] والكافرون[١] والنصر[٢] والمسد[٣] والصمد[٤] والفلق[٥] والناس[٦].

والسبب في ذلك - فيما يظهر - أن المواضيع في السور القصيرة اختصرت وتحددت، ولاسيما في الجزء الثلاثين من القرآن، أما ما سوى ذلك فإن السورة الواحدة تعالج عدة قضايا، ويظنها بعض المفسرين مواضيع متعددة لا رابط بينها.

خامساً: مقاصد القرآن عند البقاعي[٧]:

وله في هذا الفن كتابه الماتع "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور"[٨]. يقول في مقدمته: فهذا كتاب عجاب، رفيع الجناب، في فنٍّ ما رأيت من سبقني إليه[٩].

المثال الأول: سورة البقرة: مقصودها إقامة الدليل على أن الكتاب هدى ليتبع في كل ما قال[١٠].

---

(١) المصدر السابق (١/٥٤٨).

(٢) المصدر السابق (١/٥٥٠).

(٣) المصدر السابق (١/٥٥٢).

(٤) المصدر السابق (١/٥٥٣).

(٥) المصدر السابق (١/٥٥٦).

(٦) المصدر السابق (١/٥٥٧).

(٧) هو: برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي مؤرخ وأديب، أصله من البقاع في سورية وكانت وفاته بدمشق سنة ٨٥٨هـ ومن أشهر مؤلفاته: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. (البدر الطالع: ١/١٩).

(٨) حققه عبد الرزاق غالب المهدي وطبعته دار الكتب العلمية.

(٩) نظم الدرر (١/٣).

(١٠) نظم الدرر (١/٢٤).

(١١) (٢/٢٠٤).

المثال الثاني: سورة النساء: مقصودها الاجتماع على التوحيد(١١).

المثال الثالث: سورة المائدة: مقصودها الوفاء بما هدى إليه الكتاب(١).

ومنهج البقاعي في تفسيره أن يذكر في مطلع كل سورة مقصودها، ثم يبين علاقة كل آية بما قبلها وما بعدها وصلة ذلك بمقصود السورة.

سادسًا: مقاصد القرآن عند الطاهر ابن عاشور: يجمل الطاهر ابن عاشور مقاصد القرآن في ثلاثة أنواع: أولها الثناء على الله، والثاني الأوامر والنواهي، والثالث: الوعد والوعيد(٢).

وقد فصل الشيخ هذه المقاصد عند افتتاح كل سورة فكان يذكر أغراضها ومواضيعها الإجمالية بمثل صنيع الفيروز آبادي وقد التزم بذلك في كل القرآن.

المثال الأول: سورة الأعراف: يقول المؤلف: أغراضها: افتتحت هذه السورة بالتنويه بالقرآن والوعد بتيسيره على النبي ﷺ ليبلغه وكان افتتاحها كلامًا جامعًا وهو مناسب لما اشتملت عليه السورة من المقاصد ... ثم يقول: وتدور مقاصد هذه السورة على محور مقاصد؛ منها:

النهي عن اتخاذ الشركاء من دون الله.

وإنذار المشركين عن سوء عاقبة الشرك في الدنيا والآخرة.

ثم شرع يعدد المقاصد حتى أوصلها إلى أربعة عشر مقصدًا(٣).

المثال الثاني: سورة فاطر: يقول المؤلف: أغراض هذه السورة:

اشتملت هذه السورة على إثبات تفرد الله تعالى بالإلهية فافتتحت بما يدل على

(١) (٢/ ٣٨٤).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ١٣٣).

(٣) التحرير والتنوير (٥/ ٧).

أنه مستحق الحمد على ما أبدع من الكائنات الدال إبداعها على تفرده تعالى بالإلهية وعلى إثبات صدق الرسول ﷺ فيما جاء به .. وتذكير الناس بإنعام الله عليهم .. وتثبيت النبي ﷺ، وهكذا يعدد مواضيع السور(١).

المثال الثالث: سورة نوح: يقول المؤلف: أغراضها: أعظم مقاصد السورة ضرب المثل للمشركين بقوم نوح ثم يعدد المقاصد الأخرى(٢).

سابعًا: مقاصد القرآن عند سيد قطب:

يقول عن مقاصد القرآن: يلحظ من يعيش في ظلال القرآن أن لكل سورة من سوره شخصية مميزة، شخصية لها روح يعيش معها القلب كما لو كان يعيش مع روح حي مميز الملامح والسمات والأنفاس، ولها موضوع رئيس أو عدة موضوعات رئيسة مشدودة إلى محور خاص، ولها جو خاص يظلل موضوعاتها كلها ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة تحقق التناسق بينها وفق هذا الجو.

المثال الأول: سورة البقرة: يقول المؤلف: هذه السورة تضم عدة موضوعات ولكن المحور الذي يجمعها كلها محور واحد مزدوج يترابط الخطان الرئيسان فيه ترابطًا شديداً؛ فهي من ناحية تدور حول موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية في المدينة ... ثم يقول: وهي من الناحية الأخرى تدور حول مواقف الجماعة المسلمة في أول نشأتها، ثم يقرر أن محور السورة يدور حول حمل أمانة الدعوة والخلافة في الأرض، بعد أن تعلن السورة نكول بني إسرائيل عن حملها(٣).

---

(١) المصدر السابق (١١/٢٤٨).

(٢) المصدر السابق (١٤/١٨٥).

(٣) ظلال القرآن (١/٢٧ - ٢٨).

(٤) ظلال القرآن (الجزء الأول - ص٣٥٠).

المثال الثاني: سورة آل عمران يذكر أن لها محورين: الأول[٤]: أحداث غزوة أحد، والثاني: الرد على شبهات أهل الكتاب حول عيسى عليه السلام، ويذكر أن المحور الثاني سبق الأول، ثم أشار إلى أن الرابط بين المحورين هو الصراع بين الحق والباطل، وأن الحديث عن أهل الكتاب صراع نظري، وأما الحديث عن غزوة أحد فهو صراع عملي.

المثال الثالث: سورة الرعد: يقول المؤلف: موضوعها الرئيس – ككل موضوع للسور المكية كلها على وجه التقريب – هو العقيدة وقضاياها، وتوحيد الإلوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الدينونة لله وحده في الدنيا والآخرة جميعًا، ومن ثم قضية الوحي وقضية البعث وما إليها[١].

* * *

المبحث الثاني
أدلة المقاصد وطرق الكشف عنها

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: أدلة مقاصد السور النقلية والعقلية.

المطلب الثاني: طرق الكشف عن المقاصد.

المطلب الأول: أدلة مقاصد السور النقلية والعقلية

المسألة الأولى: الأدلة النقلية:

وتحت هذه الأدلة أنواع وتحت كل نوع نصوص:

---

(١) ظلال القرآن (الجزء الرابع – ٢٠٤٠)، وبعد كتاب الظلال كثرت الدراسات عن مقاصد القرآن مثل كتاب محمد الغزالي: التفسير الموضوعي للقرآن وكتاب د. عبد الله شحاته أهداف السور.

النوع الأول: النصوص الواردة في تدبر القرآن:

مثل قوله تعالى: ﴿ **أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً** ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿ **أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** ﴾(٢).

وقوله: ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾(٣)، وقوله: ﴿ **أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءهُمُ الأَوَّلِينَ** ﴾(٤).

وجه الدلالة:

حث القرآن على تدبره وتفهمه يشمل تأمل معانيه المتفرقة في كل القرآن ومعاني كل سورة، وهذا الثاني ينقسم إلى قسمين: الأول: معاني آيات كل سورة والثاني: معاني السورة الإجمالية والذي ترمي إليه وهذا هو المقصود.

النوع الثاني: النصوص الواردة في إثبات صفة الحكمة لله عز وجل وإثبات اسمه الحكيم.

مثل قوله تعالى: ﴿ **أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنَزلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً** ﴾(٥)، ومثل قوله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ** ﴾(٦)، واسم الله الحكيم تارة يقرن بالعزيز وتارة يقرن بالعليم وتارة يقرن بالواسع.

(١) سورة النساء – ٨٢ .
(٢) سورة محمد – ٢٤ .
(٣) سورة ص – ٢٩ .
(٤) سورة المؤمنون – ٦٨ .
(٥) الأنعام – ١١٤ .
(٦) الإسراء – ٣٩ ، وقد وصف القرآن بالحكمة في قوله: ﴿ **وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ** ﴾ يس (٢)، وقوله: ﴿ **تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ** ﴾ يونس (١)، وفي هود: ﴿ **كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** ﴾ (١).

وجه الدلالة: أن الحكيم وصاحب الحكمة والكلام المحكم هو القول الذي بانت مقاصده وظهرت غاياته، أما الكلام الذي لا مقاصد له أو جمعت فيه مقاصد متعددة لا رابط بينها فلا يقال له: كلام محكم.

النوع الثالث: اتفاق السور على مقدمة وخاتمة متقاربتين في المعنى، ولو تتبعنا سور القرآن لوجدنا السور الطوال تشترك في ذلك؛ ففي سورة البقرة بدأت بالإيمان وختمت به، وفي سورة آل عمران بدأت بدعوة النصارى وختمت بها، وفي سورة النساء بدأت بأحكامهن المالية واختتمت بها، وفي سورة المائدة بدأت بالعقد مع الله واختتمت به، وفي سورة الأنعام بدأت بالربوبية واختتمت بها، وفي سورة الأعراف بدأت بالكتاب واختتمت به، وفي سورة الأنفال بدأت بالأنفال واختتمت بها، وفي سورة التوبة بدأت بمواجهة الكفار واختتمت بها.

ومن أراد التوسع في ذلك فليراجع كتاب السيوطي(١) "مرصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع(٢)"، ويلاحظ على كتاب السيوطي التوسع في ذكر المقاطع والمطالع، ولذلك اختلفت المناسبات التي ذكرتها عن المناسبات التي ذكرها.

يقول أبو حيان(٣): تتبعت أوائل السور المطولة فوجدتها يناسبها أواخرها، بحيث لا يكاد ينخرم منها شيء وسأبين ذلك إن شاء الله في آخر كل سورة، وذلك من أبدع الفصاحة، حيث يتلاقى آخر الكلام المفرد في الطول بأوله، وهي عادة

---

(١) هو: عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر الخضيري الأسيوطي يقول عن نفسه: رزقت التبحر في سبعة علوم، وهي التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع وبلغت مؤلفاته أربعمائة وواحد وأربعين وتوفي سنة (٩١١). انظر: شذرات الذهب (٨/٥٣).

(٢) طبع بتحقيق د. عبد المحسن العسكر – ط ١ – دار المنهاج.

(٣) هو: محمد بن يوسف الجياني الأندلسي شيخ النحاة له البحر المحيط في التفسير توفي سنة خمس وأربعين وسبعمائة. انظر: طبقات الشافعية (٩/٢٧٩) والبداية والنهاية (١٤/٢٢٤).

العرب في كثير من نظمهم، يكون أحدهم آخذاً في شيء، ثم يستطرد فيه إلى شيء آخر ثم إلى آخر هكذا طويلاً، ثم يعود إلى ما كان آخذاً فيه أولاً ومن أمعن النظر في ذلك سهل عليه مناسبة ما يظهر ببادئ النظم أنه لا مناسبة له(١).

المسألة الثانية: أدلة مقاصد السور العقلية:

الدليل الأول: أن الأمر لا يخلو إما أن لا يكون للسورة مقصد، أو أن يكون لها عدة مقاصد أو أن يكون لها مقصد واحد، وسننظر في كل احتمال.

الاحتمال الأول: أن لا يكون للسورة مقصد وهذا لا يكاد يتصور في أدنى كلام، فكيف بالكلام المعجز الذي أبهر العرب وأعجزهم، ويلزم من قولنا أن هذه السورة لا مقصد لها، وأن آياتها لا معنى لها – معارضة بيان القرآن، ولو كان الأمر كذلك لبادر أهل مكة بالطعن في القرآن لهذا الأمر.

الاحتمال الثاني: أن يكون للسورة عدة مقاصد وهذا لا يخلو من أمرين، إما أن تكون هذه المقاصد تشترك في معنى واحد وهو المطلوب، أو لا تشترك هذه المقاصد في معنى واحد، بل هي تتضمن معاني متعددة لا ترابط بينهم، وهذا لا يقع في كلام عموم الناس فضلاً عن أهل الفصاحة منهم، فكيف بكلام الله عز وجل.

الاحتمال الثالث: أن يكون للسورة مقصد واحد تشترك جميع آيات السورة على تقريره وتبيينه، وهذا هو اللائق بكلام الله.

الدليل الثاني: أن السورة التي ظهر مقصودها وبان مُرادها تكون قريبة الفهم مُعينة على العمل بها.

---

(١) البحر المحيط (٢ / ٧٥٥) دار الفكر.

الدليل الثالث: أن الكلام ذا المقصود الواحد أكمل وأعظم من الكلام الذي له عدة مقاصد أو لا مقصود له، بل إن الناس إذا سمعوا متكلمًا في مواضيع متعددة لا رابط بينها قالوا: هذا كلام متفرق مشوش.

المطلب الثاني: طرق الكشف عن مقاصد السور:

الطريق الأول: الاستقراء:

والمقصود به تتبع آيات السورة واحدة واحدة، والبحث عن القدر المشترك بينها، وهو مأخوذ من الاستقراء اللغوي(١)، وهو قريب للتعريف الأصولي، وهو تتبع الجزئيات لإثبات الحكم الكلي(٢).

وقد أشار البقاعي ناقلاً عن شيخه إلى شبيه هذا فقال في مقدمة كتابه: "قال شيخنا أبو الفضل محمد المغربي البجائي المالكي(٣): الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سيقت له السورة، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له"(٤).

المثال الأول: الفاتحة:

وهي سبع آيات بدأت بالثناء على الله عز وجل، ثم بينت العبادة التي يرتضيها الله لعباده وهي الإخلاص وسلوك صراطه المستقيم، مع التحذير من صراط

---

(١) لسان العرب (١٥/١٤٦)، والصحاح (٢/١٧٨٧).

(٢) انظر رسالة الاستقراء وأثره في القواعد الأصولية والفقهية للطيب السنوسي – ص٤٥ .

(٣) هو: محمد بن محمد المشدالي المغربي، من آثاره شرح جمل الخونجي في المنطق: توفي سنة: (٨٦٥هـ).

(٤) نظم الدرر: (١/١١).

المغضوب عليهم وصراط الضالين وهذا الاستقراء لآيات السورة يراد منه الوصول للقاسم المشترك بين آياتها، ولو جمعنا بين موضوعيها لوجدناها بدأت بالثناء على الله ثم الواجب على العبد، وعلى ذلك فإننا نقول: إن سورة الفاتحة سورة العبودية لله عز وجل؛ لأنها تغرس معاني تلك العبودية من خلال الثناء على الله والتعريف به، ومن خلال الاعتراف بإخلاص عبوديته، والوقاية من العبودية المشوهة التي تَلَبَّسَ بها اليهود والنصارى.

المثال الثاني: سورة البقرة:

وهي مائتان وستة وثمانون آية، بدأت بتقسيم الناس إلى مؤمنين وكافرين ومنافقين، ثم تحدثت عن قصة آدم، ثم تحدثت عن تاريخ بني إسرائيل، ثم تحدثت عن قصة إبراهيم في بناء البيت، ثم تحدثت عن العبادات والمعاملات التي شرعت في المدينة، وبدأت بالصلاة وتحويل القبلة ثم ختمت بالديون والرهون، وكانت خاتمة السورة في إيمان العباد بأركان الإيمان ورحمة الله بخلقه وتخفيفه عليهم، ولو نظرنا إلى هذه المواضيع المتعددة محاولين الجمع بينها في خيط واحد لتوصلنا إلى أن المقصود من السورة هو بناء المجتمع المدني في بداية تأسيسه، ولذلك كانت البقرة أول سورة نزلت في المدينة.

وعلى ذلك فإن كل موضوع تحدثت عنه سورة البقرة نستطيع بكل اطمئنان أن ندخله في عموم هذا المقصد، فإن قال قائل: فما علاقة الحديث عن بني إسرائيل والاستطراد في ذلك؟ نقول: الجواب من عدة أوجه:

الوجه الأول: أن اليهود كانوا قد استوطنوا المدينة وصاروا من أهلها وكانوا من تجار الذهب والسلاح فيها، بل إنهم كانوا ينقسمون إلى فريقين: فريق مع الأوس، وفريق مع الخزرج، ويحدث بينهم قتال وأسر، وإذا كان الأمر كذلك فإن الجماعة

المؤمنة بحاجة لمعرفة أخبار هؤلاء القوم لتكوين رؤية أولية عنهم.

الوجه الثاني: التحذير من اليهود وأخذ الحيطة، ولئلا تنطلي على الجماعة المؤمنة أقوالهم وأفعالهم.

الوجه الثالث: معرفة أخلاق اليهود ومنهجهم في الحياة مع أنفسهم وإخوانهم وأنبيائهم يعين على معرفة التعامل معهم.

الوجه الرابع: كل من عادى قومًا لابد أن يعرف تاريخهم لينتصر عليهم، فمن لا يعرف تاريخ أعدائه لا ينتصر عليهم.

المثال الثالث: سورة آل عمران:

وقد بدأت السورة بقضايا الألوهية، ثم تبع ذلك قصة عيسى عليه السلام إلى منتصف السورة، ثم تبع ذلك قصة أحد، وختم ذلك بحديث عن أهل الكتاب، وعلى ذلك فالسورة تقرر المواجهة العملية باللسان والسنان مع أهل الباطل، وكأنها بذلك تكمل الشطر الثاني من الهدايتين، فإن الهداية إما أن تكون علمية أو عملية، الهداية العلمية مبنية على المعرفة والقبول، والهداية العملية تقوم على الأداء والمتابعة، والذي يظهر أن سورة البقرة تبين الهداية العلمية، في حين أن سورة آل عمران تبين الهداية العملية، وهاتان الهدايتان هما اللتان ضل فيهما اليهود والنصارى المذكوران في سورة الفاتحة.

فإن اليهود قد ضلوا في الهداية العملية فغضب الله عليهم، والنصارى قد ضلوا في الهداية العلمية فسماهم الله الضالين.

ولو تتبعنا الاستقراء في كل سورة لوجدنا أنها تدور على محورين(١) أو أكثر،

(١) كما في سورة البقرة والنساء والتوبة.

ولا سيما في السور الطوال، وهذه السور تدل على أصل واحد تعود إليه، أما السور القصيرة، ولاسيما في المفصل فإنها تدور على محور واحد من أول السورة إلى آخرها، وسيأتي الحديث عن ذلك إن شاء الله تعالى.

الطريق الثاني: معرفة سبب النزول:

وتحت هذا مسائل:

أولاً: معنى سبب النزول.

ثانيًا: علاقة سبب النزول بمقاصد السور.

ثالثًا: أمثلة على سبب النزول في معرفة مقاصد السور.

أولاً: معنى سبب النزول:

يقول السيوطي في تعريفه: "ما نزلت الآية أيام وقوعه"(١).

ويدخل في تعريف السيوطي: كل قول أو فعل حدث في زمان تنزل القرآن، ثم جاءت الآيات مبينة حكمة أو مجيبة على سؤال أو كشفًا لشبهة أو تثبيتًا للنبي ﷺ أو تهديداً للكفار.

ثانيًا: علاقة سبب النزول بمقاصد السور:

معرفة السبب تورث معرفة المسبب، وفي ذلك يقول ابن دقيق العيد: "بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن"(٢).

ويقول الشاطبي: "إن علم المعاني والبيان الذي يعرف به إعجاز نظم القرآن فضلاً عن معرفة مقاصد كلام العرب إنما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال حال الخطاب من جهة نفس الخطاب، أو المخاطِب، أو المخاطَب، أو الجميع، إذ الكلام

(١) الإتقان: للسيوطي (١/ ٩٠)

(٢) انظر: الإتقان للسيوطي (١/ ٨٤).

الواحد يختلف فهمه بحسب حالين، وبحسب مخاطبين"(١).

وإذا فهمت الآيات التي نزلت السورة من أجلها كسورة آل عمران وعبس والمجادلة والأنفال والنور وغيرها عرفنا مقاصدها، أما السور التي نزلت بعض آياتها بسبب وبعضها الآخر لسبب آخر فلها شأن خاص، وذلك أن بين السببين أمراً مشتركًا يخولنا أن نجمع منهما مقصوداً للسورة، وهذه أمثلة تكشف هذا الطريق:

ثالثًا: أمثلة على أثر سبب النزول في معرفة مقاصد السور:

المثال الأول: سورة العنكبوت:

قال الشعبي(٢): إنها نزلت – يعني: ﴿**ألم * أحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا**﴾ الآيتين – في أناس كانوا بمكة أقروا بالإسلام، فكتب إليهم أصحاب محمد نبي الله ﷺ من المدينة: إنه لا يقبل منكم إقرار بالإسلام حتى تهاجروا، فخرجوا عامدين إلى المدينة، فاتبعهم المشركون، فردوهم ... إلخ"(٣).

وورد عن قتادة(٤) أنه قال: ﴿**وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً**﴾ إلى قوله: ﴿**فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾(٥)، قال: نزلت في سعد بن أبي وقاص(٦) لما هاجر، قالت أمه: والله لا يظلني بيت حتى يرجع، فأنزل الله في ذلك أن يحسن

---

(١) الموافقات للشاطبي (٣/٢٥٨).

(٢) هو: عامر بن شرحبيل الشعبي الفقيه المحدث من رجال الكتب الستة وقد رأى علي بن أبي طالب صلى خلفه ولد سنة إحدى وعشرين. انظر: سير أعلام النبلاء (٤/٢٩٤)، تذكرة الحفاظ (١/٧٤).

(٣) تفسير الطبري (٢٠/١٢٩).

(٤) هو: قتادة بن دعامة السدوس الحافظ المفسر الحديث من أوعية العلم ومن رجال الكتب الستة وتوفي سنة ثماني عشرة ومائة. انظر: سير أعلام النبلاء (٥/٢٨٣)، وتذكرة الحفاظ (١/١٢٢).

(٥) العنكبوت (٨).

(٦) هو: سعد بن أبي وقاص صاحب النبي ﷺ شهد المشاهد كلها وأحد الستة أهل الشورى، وتوفي سنة خمس وخمسين. انظر: سير أعلام النبلاء (١/٩٢) والاستيعاب (٤/١٧٠).

إليها، ولا يطيعها في الشرك به[١].

واختار الطبري في ختام سورة العنكبوت أنها نزلت في الهجرة فقال عند قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾[٢]: يقول تعالى: ذكره للمؤمنين من أصحاب نبيه هاجروا من أرض الشرك من مكة إلى أرض الإسلام المدينة، فإن أرضي واسعة، فاصبروا على عبادتي ... إلخ[٣]، ومن ذلك ندرك أن سورة العنكبوت من أولها إلى آخرها في الهجرة، وهذا يبين مقصودها، فإن مقصود السورة تثبيت المؤمنين على الهجرة، ومواساتهم على ما تركوه في مكة.

المثال الثاني: سورة الحشر:

روى البخاري من حديث سعيد بن جبير[٤] قال: قلت لابن عباس: سورة الحشر؟ قال: "قل سورة بني النضير"[٥].

وهذا بيان من ابن عباس أن سورة الحشر نزلت في بني النضير، وهو محل اتفاق عند المفسرين[٦].

وإذا نظرنا إلى سبب النزول عرفنا مقصود السورة، وهو: تذكير الخلق بما أحل الله ببني النضير ليعتبروا.

---

(١) تفسير الطبري (٢٠/١٣١).

(٢) العنكبوت (٥٧).

(٣) تفسير الطبري (٢١/١٠).

(٤) هو: سعيد بن جبير بن هشام الحافظ المفسر من رجال الكتب الستة، وقتله الحجاج سنة خمس وتسعين. انظر: سير أعلام النبلاء (٤/٣٣٧) وتذكرة الحفاظ (١/٧١).

(٥) رواه البخاري في صحيحه. كتاب التفسير. رقم الحديث ٤٨٨٢.

(٦) تفسير الطبري (٢٨/٢٧).

المثال الثالث : سورة المطففين :

روى ابن ماجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً فأنزل الله سبحانه : ﴿ **وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ** ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك(١) .

وجه الدلالة : على علاقة السبب بالمقاصد أن السورة من أولها إلى آخرها في حكم المطففين فبدأ بالتطفيف بالكيل والميزان ثم ثنى بالتطفيف بالإيمان .

الطريق الثالث : الإيماء

تعريفه : لغة الإشارة(٢) ويراد به هنا الإشارات القرآنية الواردة في ثنايا السور لبيان المقصود بها .

أنواع الإيماء في مقاصد السور :

الأول : التناسب بين أول السورة ووسطها وخاتمتها(٣) :

لقد نزل القرآن بلغة العرب التي فاقت جميع اللغات وكان العرب يتفاخرون ويتباهون بالأفصح والأبلغ منهم، ويعقدون لذلك المنتديات والمجالس، وكانوا يتفننون بمقدمات مواضيعهم وخواتيمهم ويبدعون في ربط ذلك بخيط دقيق .

ثم جاء القرآن فأعجزهم عن اللحاق به، أو المجيء بشيء يسير منه، كسورة قصيرة، فلم يحاولوا ذلك لمعرفتهم بعلو خطاب القرآن .

وكان خطاب القرآن مبدوءاً بمقدمة ومنتهياً بخاتمة على سبيل خطاباتهم ولكن

---

(١) رواه ابن ماجه . كتاب التجارات . باب التوقي في الكيل والوزن . رقم الحديث ٢٢١٤ وانظر تفسير الطبري (٣٠ / ٩١) وصححه ابن حبان برقم (٥٠٠٩) .

(٢) الصحاح ١ / ٨٢ .

(٣) انظر : الإتقان للسيوطي (٣ / ٣٣٠) .

القرآن فاق مقدماتهم فبدأ بالحروف والثناء والأسماء والأفعال والأخبار الغيبية، وبدأ بالوعد والوعيد في أنواع كثيرة من المقدمات(١)، وكذا في الخواتيم، وأما المواضيع المتوسطة بين المقدمات والخواتيم فلها شأن آخر، فقد كان العرب يتحدثون في الرثاء والنسيب والمديح، فجاء القرآن فخاطبهم خطابًا عقليًا يدهش أولي الألباب، ومن تأمل التناسق والتناسب بين مقدمة كل سورة وموضوعها وخاتمتها أدرك ذلك جيداً.

المثال الأول: سورة هود:

بدأت بمقدمة فيها الثناء على كلام الله وما يدعو إليه القرآن وإعراض الكفار عنه، ثم شرعت السورة في سرد قصص الأنبياء من نوح عليه السلام إلى موسى عليه السلام، ثم ختمت بوعيد شديد، ومواساة للنبي ﷺ.

ومن خلال ذلك ندرك أن مقصود السورة تثبيت النبي ﷺ على دعوته، وتهديد الكفار بمصير الأمم السابقة.

المثال الثاني: سورة النحل:

بدأت بالتهديد والتعريف بحق الله عز وجل على عباده، ثم شرعت بتعداد النعم التي توجب معرفة حق الله والعمل به، ثم ختمت بالتهديد والتذكير بحال إبراهيم حين شكر نعمة ربه.

وهذا يقودنا لمعرفة مقصود السورة وهو معرفة النعم وشكرها.

المثال الثالث: سورة النجم:

بدأت بالقسم والتعريف بالرسول المكي والبشري، ثم شرعت تبين نقص عقول

(١) انظر: الإتقان للسيوطي (٣/٣١٦).

الكفار حين عبدوا الأصنام، وختمت السورة بالتهديد.

ومن ذلك يتبين لنا أن مقصود السورة النصرة للنبي ﷺ.

الثاني: التكرار، وله ثلاثة أنواع:

النوع الأول: تكرار كلمة.

النوع الثاني: تكرار آية.

النوع الثالث: تكرار موضوع.

ولو نظرنا في تكرار الكلمات في القرآن لوجدنا أن كلمة واحدة هي أكثر الكلمات وروداً في القرآن الكريم، وهي كلمة الله، فقد وردت أكثر من ألفين وخمسمائة مرة، بمعدل أربع مراه في الوجه الواحد أو في الصفحة الواحدة، وهذا يدل على أن القرآن حديث عن الله عز وجل، أو عن الإيمان به سبحانه وتعالى:

أما النوع الأول: فمن نظر في تكرار الكلمات في السورة الواحدة تبين له سر لطيف من أسرار القرآن وهو مقاصده، مثال ذلك سورة التوبة: فقد تكررت فيها كلمة التوبة مراراً، وسورة البقرة تكرر فيها لفظ الإيمان وما اشتق منه أكثر من سبعين مرة، وهذا التكرار له دلالته الظاهرة وهو الاعتناء بهذا الأمر.

والنوع الثاني: وهو تكرار آية، فقد ورد ذلك في سورة الشعراء والقمر والرحمن والمرسلات، وهذا مرتبط بمقصود السورة ارتباطاً وثيقاً، وذلك أن مقصود سورة الشعراء المواساة للنبي ﷺ والتهديد لأعدائه وقد تكررت في السورة آية: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

ومقصود سورة القمر كذلك في المواساة، والتهديد وقد تكرر فيها ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ والمعنى التدبر لهذه الآية العظيمة من قبل أن يحل بالكافر ما حل بالأمم السابقة.

ومقصود سورة الرحمن الامتنان والتذكير بنعمة الله ولذلك تكرر فيها ﴿ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ ومقصود المرسلات التهديد ولذلك تكرر فيها: ﴿ **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ** ﴾.

وأما النوع الثالث: وهو تكرار الموضوع فهو كثير: مثل تكرار المال في سورة النساء، وتكرار الأطعمة في سورة المائدة، وتكرار الغنائم في سورة الأنفال، وهذا يدل على أن هذا الشيء المكرر يؤكد المقصود أو يبينه.

الثالث: معرفة أسماء السور:

والاسم يدل على مسماه، ولو لم يكن للاسم أثرٌ في المسمى لما كان له فائدة إلا التمييز، ولا ريب أن الاسم يراد به التعريف بالمسمى وتمييزه عن غيره، ولذلك فإن أسماء الله كلها حسنى، وأسماء النبي ﷺ كلها حميدة، وأسماء الأشياء الشريفة ذات دلالة، فالسيف والأسد لهما من الأسماء ما أوصله بعضهم إلى مائة اسم، وكل اسم ذو مغزى، وكذلك الأمر في أسماء السور.

وأسماء السور كالعنوان للسورة تدل على معانيها وتكشف آياتها، وسواء قلنا أن أسماء السور توقيفية أم اجتهادية[1]، فإن الاسم مناسب لمقصود السورة، يقول البقاعي: وقد ظهر لي باستعمالي لهذه القاعدة بعد وصولي لسورة سبأ في السنة العاشرة من ابتدائي في عمل هذا الكتاب أن اسم كل سورة مترجم عن مقصودها؛ لأن اسم كل شيء تظهر المناسبة بينه وبين مسماه – عنوانه – الدال إجمالاً على تفصيل ما فيه[2].

– فالفاتحة يستفتح بها الكاتب، وهي أهل لهذا الاستفتاح، ويستفتح بها كل

(١) انظر في خلاف هذه المسألة: الإتقان للسيوطي (١/١٥٩).

(٢) الدرر للبقاعي (١/١٢).

مستغلق، لاشتمالها على الحمد والثناء والذل والإخبات.

– وسورة الإخلاص أفردت للحديث عن الله عز وجل.

– وسورة الفيل لبيان قصة أصحاب الفيل.

– وسورة الزلزلة والواقعة والبينة كذلك.

وهذا هو النوع الأول من أسماء السور وهي السور التي يكون اسمها عنوانًا لها.

والنوع الثاني: السور التي سميت بأشهر شيء حدث فيها، مثل: البقرة وآل عمران والمائدة والأعراف والأنفال والتوبة ويونس وهود والرعد وإبراهيم والحجر والنحل والإسراء والكهف ومريم والنمل والعنكبوت والروم ولقمان وسبأ والصافات والشورى والدخان والجاثية، وأكثر سور القرآن من هذا النوع.

الطريق الرابع: تنقيح المناط:

التعريف به لغة: تهذيب ما يتعلق به[1].

ويراد به هنا الاعتناء بصلب الموضوع دون النظر في الاستطرادات والتعليقات الواردة في السورة.

علاقته بمعرفة مقاصد السور:

القرآن كلام الله عز وجل الذي لا يشبهه شيء من الكلام، وكان أسلوب القرآن – ولاسيما في السور الطوال – الجمع بين الأشياء المشتركة والاستطراد عند بعض المواضيع للحاجة إلى ذلك، والسبب أن القرآن كتاب ذكرى وهداية، وما كان كذلك فلابد من التنبيه في الموضع المناسب، إما بإيجاز أو إسهاب.

والسور حين تعرض موضوعًا يتعلق بمقصود السورة يرتبط بهذا الموضوع أشياء

(١) انظر: لسان العرب (١٤/ ٢٥٣).

كثيرة يحسن التنبيه عليها في مواطنها على حسب السياق، ووظيفة المفسر أن يميز بين المواضيع الفرعية والموضوع الأصلي وهو مقصودنا بتنقيح المناط.

مثال ذلك سورة البقرة: بدأت بمدح القرآن وتقسيم الناس ثلاثة أقسام، ثم دعوة الخلق لعبادة الله والإيمان برسوله وترهيبهم وترغيبهم ثم تحدثت عن ضرب المثل بالبعوضة، ثم عن الخلق، ثم عن آدم، ثم عن بني إسرائيل وأطالت في الحديث عنهم، وكان في ثنايا الحديث عنهم مواضيع فرعية أخرى.

والواجب لبيان المقصود أن يميز المفسر بين هذه المواضيع الفرعية لئلا تشكل على المقصود الأصلي، وهو بناء المجتمع المدني في بداية تأسيسه.

المثال الثاني: سورة آل عمران:

بدأت بالثناء على الله عز وجل وبيان اختلاف الناس إلى فريقين، وبداية قصة عيسى عليه السلام وما يتعلق بذلك من خبر زكريا وكلام عيسى لقومه ودعوة أهل الكتاب إلى كلمة سواء، وبيان أنواع أهل الكتاب، ثم تهديدهم، وبيان حال إبراهيم عليه السلام وعلاقته بالكعبة، ثم الانتقال إلى الخطاب عن المؤمنين.

وإذا نظر أحد في هذه المواضيع ظن أنها منفصلة عن مقصود السورة، وليس الأمر كذلك، بل حصل في السورة مواضيع فرعية اقتضاها المقام مثل الحديث عن الولاء والبراء، والدعاء بعدم الزيغ، وخبر آل فرعون، وحصل في السورة تعليقات كثيرة على بعض المواضيع الفرعية اقتضاها المقام مثل الثناء على الصابرين والصادقين، واختصاص رحمة الله ببعض خلقه، وبيان إيمان الناس بما أنزل على الأنبياء، ونحو ذلك.

إلا أن المقصود الأصلي مواجهة النصارى باللسان ومواجهة المشركين بالسنان ولذلك تحدثت عن الموضوعين.

المثال الثالث: سورة النساء:

وقد بدأ بالحديث عن أصل الخلق، ثم العدل مع النساء في الأموال والنكاح، ثم تطرقت السورة للحديث عن بني إسرائيل وأطالت في الحديث عنهم ثم عادت، لبيان مقصودها.

الطريق الخامس: السبر والتقسيم:

المقصود بهما لغة: التجربة والتفريق(١).

ويراد بهما هنا: حصر المعاني المذكورة في كل سورة، ثم النظر في صلاحيتها لتكون مقصداً للسورة.

فحين تتعدد المواضيع في السورة الواحدة، مثل أكثر السور، يحسن استخدام هذا الطريق؛ لأنه يضعف الظن ويقوي اليقين، فإننا إذا قلنا: هذه السورة إما أن يكون مقصودها كذا أو كذا أو كذا، حصرنا المقصود في هذه الثلاثة، ثم نقول: إذا كان مقصودها كذا لم يتناسب مع ذكر كذا وكذا وكذا في نفس السورة، وهكذا في كل قسم، وفي النهاية نخلص إلى قسم صحيح عن طريق سبره مع أمثاله.

مثال ذلك سورة آل عمران:

بدأت الحديث عن الألوهية واشتمال القرآن على محكم ومتشابه والتهديد للكفار، ثم تطرقت للحديث عن عيسى عليه السلام إلى منتصف السورة، ثم انتقلت للحديث عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد، ثم ختمت بالحديث عن بني إسرائيل، فنقول: هذه السورة لا يخلو مقصودها إما أن يكون عن تقرير التوحيد والرد على النصارى، أو الحديث عن الجهاد في غزوة أحد،

(١) الصحاح (٢/٦٧٥).

ويمكن الجمع بين الموضوعين فنجعلهما جهاد البيان والسنان.

المثال الثاني: سورة الأنعام:

بدأت بالثناء على الله عز وجل، وبيان إعراض الكافرين عن ربهم، والشبه التي ألقيت على المسلمين، وأحكام الأطعمة.

فنقول: لا يخلو مقصودها من أمرين إما أن تكون في توحيد الألوهية ورد الشبه عنه أو تكون في جدال الكافرين، ونجد أن الأول أشمل من الثاني ويحيط به.

المثال الثالث: سورة المجادلة:

بدأت بأحكام الظهار، ثم تحدثت عن إعراض الكافرين، ولعل المقصود الذي يجمع هذا وهذا أن السورة في النجوى فبدأت بنجوى خولة، ثم مناجاة المنافقين، ثم النهي عن النجوى، ثم مناجاة النبي ﷺ، ثم تهديد المعرضين عن هذه المناجاة.

* * *

المبحث الثالث

أقسام مقاصد السور

وتحته ثلاثة أقسام:

المقصد الأول: الألوهية والبعث

المقصد الثاني: الرسالة

المقصد الثالث: العبادات والمعاملات

بعد التأمل في مقاصد كل سورة وجدتها ترجع إلى ثلاثة مقاصد:

المقصد الأول: الألوهية والبعث.

المقصد الثاني: الرسالة.

المقصد الثالث: العبادات والمعاملات.

المقصد الأول: الألوهية والبعث.

أما المقصد الأول فتارة يقرن الله بينهما كما في قوله: ﴿**لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**﴾(١)، وقوله: ﴿**وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ**﴾(٢)، وقوله: ﴿**وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ**﴾(٣)، ومواضع أخرى يبلغ مجموعها ستة وعشرين موضعًا، تارة يفرد الحديث عن الله ويفرد الحديث عن يوم القيامة في مواضع عديدة.

والسور التي تناولت القضيتين كثيرة، ومقصودنا بالحديث عن الله أي عن عبادته والنهي عن الشرك به من أول السورة لآخرها، أما إذا تطرقت السورة للحديث عن الألوهية فليس مقصوداً لنا هنا؛ إذ في كل سورة نجد الحديث عن الألوهية، ومثل ذلك نقول في الحديث عن اليوم الآخر فإن المقصود إثباته والرد على المنكرين له.

أما الحديث عن الألوهية والنهي عن الشرك وبيان شُبه المشركين والجواب عنها فأول سورة تدل على ذلك سورة الأنعام إذ بدأت بالربوبية وأدلة التوحيد وفندت شُبه المشركين وختمت بالتهديد، وإذا أردنا الحصر فسنجد سورة الرعد والنحل ومريم والسجدة وص والزمر وغافر وفصلت والشورى والزخرف والرحمن والحديد والملك والقلم والجن والإنسان والإخلاص، هذه السور تحدثت عن الألوهية في

(١) سورة المجادلة: (٢٢).

(٢) سورة البقرة: (١٢٦).

(٣) سورة البقرة: (١٧٧).

مضامينها، وقد تعددت أساليب السور حول هذا الحديث؛ فأسلوب سورة الرعد وما فيه من بيان الخلق والتدبير يختلف عن أسلوب سورة النحل وما فيه من سرد النعم، وهكذا نجد في كل سورة مسلكًا خاصًا يميزها عن بقية السورة مع أنها تشبه بقية السور في المقصود، وهذا من تعاجيب القرآن.

وأما الحديث عن اليوم الآخر فقد كثر في النصف الثاني من القرآن دون الأول، وهذا إحصاء بالسور التي تحدد مقصودها حول اليوم الآخر:

الحج، الجاثية، ق، الطور، الواقعة، التغابن، الحاقة، المعارج، القيامة، المرسلات، النبأ، النازعات، التكوير، الانفطار، المطففين، الانشقاق، التين، الزلزلة، العاديات، القارعة، التكاثر، الهمزة، الماعون.

المقصد الثاني: الرسالة:

والمقصود بالرسالة الوحي والقرآن ورد الشبه عنه، وقد اشترك الحديث في السورة الواحدة عن النبي ﷺ وعن الوحي، ويشمل أيضًا الحديث عن النبي ﷺ لتثبيته ومواساته، وسرد القصص المشابهة لحال قومه، وهذا قد استغرق ثلث القرآن كسورة الأعراف ويونس وهود ويوسف والحجر وإبراهيم والإسراء والكهف وطه والأنبياء والمؤمنون والفرقان والنمل والقصص والأحزاب ويس ومحمد والفتح والنجم والقمر والحشر والجمعة والمنافقون والصف والممتحنة والتحريم والمزمل والمدثر والضحى والمسد والكوثر والفيل وقريش.

وهذه السور الكثيرة تتعدد طرقها في الحديث عن الوحي والرسول فتارة يأتي الحديث موجهًا للرسول ﷺ ومسليًا له كالسور التي يرد فيها القصص كثيراً، وتارة في الثناء عليه ومدحه كسورة الإسراء ويس والفرقان والنجم، وتارة يأتي بالتنبيه والتوجيه كالأحزاب والتحريم وعبس.

المقصد الثالث: العبادات والمعاملات

السبب في تخصيص مقصد مستقل للعبادات والمعاملات: أنا إذا نظرنا إلى سور كثيرة وجدناها تعالج قضية واحدة لا تخرج عن الأحكام الشرعية مثل سورة الأنفال والتوبة والنساء والمائدة والنور والطلاق والتحريم ونحوها من السور المدنية، والذي يظهر في هذا الأمر أن موضوع السورة كان متوجهًا لهذه المسألة الواحدة، وإن كان المقصد الأول عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه، ولكن بعض السور كانت مقدمتها وخاتمتها وموضوعها يعالج أمرًا واحدًا حتى صار غاية للسورة، فلا يحسن أن نجعل مقصود سورة الطلاق التوحيد، وإن كانت كل السور تدل على ذلك، ولكن التفصيل والتخصيص أفضل، وذلك أن الحديث عن الوحي والرسول سيقال عنه مثل ذلك، فإن سورة الضحى مثلاً نستطيع أن نقول أنها تدل على التوحيد ولكن المقصود الخاص لها نصرة النبي ﷺ، وعلى ذلك فإن تتبع السور المدنية يكشف لنا مقصودًا خاصًا لا يخرج عن العبادات والمعاملات.

فمثلاً سورة المائدة هي سورة العقود؛ فقد بدأت بالعقد مع الله، ثم تحريم الأطعمة، ثم الأنكحة، ثم الطهارة، ثم عقود أهل الكتاب، وأطالت في هذا الأمر، ثم بينت عقد اليمين، ثم رجعت إلى الأطعمة، ثم عقد الوصية، ثم عقد الأنبياء، وكذلك سورة النساء قد تحدثت عن أحكام النساء المالية والاجتماعية، والتحذير من أحكام اليهود والنصارى ولاسيما في أحكام النساء، والإقبال على حكم الله والتحذير من حكم المنافقين.

وفي سورة الأنفال حديث تفصيلي عن غزوة بدر وما جرى على الصحابة من اختلاف في الغنائم، وفي سورة التوبة بيان تفصيلي للعلاقات الخارجية مع الكفار المعاهدين والمحاربين ومع المنافقين، وقد بلغ الشطر الأول ثلث السورة تقريبًا،

واستحوذ الحديث عن المنافقين الثلثين.

وفي سورة النور علاج دقيق لمشكلة الزنا وما يتعلق به من القذف وسد باب الزنا عن طريق منع النظر وستر العورة، ثم تجيء جملة معترضة بين هذا الداء العضال تبين النور وأهله وأعداءه من الكفار والمنافقين، ثم تعود للحديث عن ستر العورات، وتختم ذلك بتعظيم حق النبي ﷺ والاستئذان عليه ومنه وتوقير مقامه.

ونختم ذلك بالحديث عن سورة الطلاق؛ فقد أحاطت بجميع أنواع المطلقات وعدَّتهن ولم تغادر منهن أحداً، ثم ختمت ذلك بتعظيم هذه الأحكام وعدم الإهمال لهن.

* * *

الخاتمة:

استعرضنا في هذا البحث موضوعًا جديداً لم ينضج بعد ولا يزال في طور التأصيل والتفصيل، ولعل البحوث القادمة من المشتغلين بالتفسير تكشف حجاب هذا العلم وتبرزه لعله يجمع شتات التفسير، ويضع قاعدة يعتمد عليها المشتغلون بالعلم عند الحديث عن التفسير.

وقد ثبت لدينا بما سبق أدلة المقاصد النقلية والعقلية، وحاولنا استنباط طرق الكشف عن المقاصد من خلال النظر في الاستقراء ومعرفة سبب النزول والإيماء والسبر والتقسيم وتنقيح المناط.

وختمنا ذلك ببيان أقسام المقاصد وهي مقاصد عامة تدور على ثلاثة محاور الأول الحديث عن الألوهية والبعث والثاني عن الوحي والرسول والثالث عن العبادات والمعاملات.

وفي نهاية هذه الخاتمة أوصي بعدة وصايا :

الأولى : الربط بين مقاصد السور واختيار النبي ﷺ لبعض السور في بعض مشاهد السيرة، واختيار الصحابة لبعض السور في مواقفهم، مثال ذلك قراءة سورة فصلت عند الوليد بن عتبة، وقراءة سورة الجمعة والمنافقين في الجمعة وقراءة، "ق" واقتربت في الجمعة والعيدين، وقراءة الصاحبة لسورة الأنفال والتوبة في المغازي .

الثانية : إبراز المقاصد القرآنية والاستدلال عليها عقلاً ونقلاً، مثل مقصد الأمن والأخلاق وهي مقاصد زائدة على الضروريات الخمس التي أصل لها الأصوليون وهي الدين والعرض والعقل والنفس والمال .

الثالثة : مراعاة تنزل القرآن وتدرجه في تشريع المقاصد والربط بين ذلك والتدرج في تطبيق الشريعة، فمثلاً القضية المالية كانت في مقدمة المقاصد القرآنية للمجتمع المدني، وقد سبقت تحريم بعض الأطعمة والأشربة وفرض الزكاة والصيام والحج، ومقصد النور الاجتماعي وحفظ المجتمع من الآفات الأخلاقية كالزنا والقذف والتبرج تأخر إلى السنة الخامسة، ومقصد الآداب الاجتماعية من إحسان الظن وترك السخرية والتنابز بالألقاب والغيبة تأخر إلى السنة التاسعة .

الرابعة : التمييز الدقيق بين مقدمة كل سورة ومواضع الاستطراد فيها وصلب موضوعها وخاتمتها؛ لأن تبين ذلك يعين القارئ على فهم القرآن الكريم، ومن ذلك ما جرى في سورة الأعراف من استطراد حول اللباس في مقدمتها بعد الحديث عن كشف الشيطان لعورة آدم فإن هذا استطراد مناسب لا يحسن تأخيره .

* * *

ثبت المراجع:

١- الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي. دار التراث - القاهرة.

٢- اجتماع الجيوش الإسلامية، لابن قيم الجوزية، دار طيبة، السعودية، ط٣، ١٤٢٠هـ.

٣- الاستقراء وأثره في القواعد الأصولية والفقهية للطيب السنوسي، دار التدمرية، السعودية، ط١، ٢٠٠٣م.

٤- إعلام الموقعين لابن قيم الجوزية، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ت. عبد الرحمن الوكيل.

٥- البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، دار الفكر، بيروت ١٩٩٢م.

٦- بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية، دار عالم الفوائد، الرياض، ط١، ١٤٢٥هـ.

٧- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، للشوكاني، مطبعة السعادة، القاهرة.

٨- البرهان في علوم القرآن للزركشي، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ.

٩- البرهان في تناسب سور القرآن لأحمد بن الزبير الثقفي، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٨هـ، ت. د. سعيد الفلاح.

١٠- بصائر ذوي التمييز لمجد الدين الفيروزي آبادي، المكتبة العلمية، بيروت، ت: عبد العليم الطحاوي.

١١- التبيان في أقسام القرآن لأبي عبد الله بن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٢– التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور، دار سحنون، تونس.

١٣– تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء بن كثير، دار طيبة، الرياض، ت: سامي السلامة.

١٤– جامع البيان عن تأويل أي القرآن لأبي جعفر الطبري، ط٣، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة.

١٥– الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٥م.

١٦– الدر المنثور.

١٧– الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب لابن فرحون المالكي، دار التراث، القاهرة.

١٨– سنن ابن ماجه للحافظ محمد بن يزيد بن ماجه القزويني، دار الجيل، بيروت.

١٩– الصحاح "تاج اللغة وصحاح العربية" لأبي نصر الجوهري، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ت. شهاب الدين عمرو.

٢٠– صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢ ١٩٩٣م. ت: شعيب الأرناؤوط.

٢١– فتح الباري بحاشية صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت.

٢٢– الصواعق المرسلة لابن قيم الجوزية، دار العاصمة، الرياض، ط٢، ١٤١٢هـ، ت: د. علي الدخيل الله.

٢٣– طبقات الشافعية، للسبكي، دار إحياء الكتب العربية.

٢٤- في ظلال القرآن لسيد قطب، دار الشروق، ط٩، ١٩٨٠م.

٢٥- عدة الصابرين لابن قيم الجوزية، دار البيان، دمشق، ت: بشير محمد عيون.

٢٦- القاموس المحيط لمجد الدين الفيروز آبادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

٢٧- لسان العرب لابن منظور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٩٩٩م.

٢٨- مجموع الفتاوى، لابن تيمية، جمع ابن القاسم.

٢٩- المحرر الوجيز، لابن عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

٣٠- مرصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع لجلال الدين السيوطي، دار المنهاج، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٦هـ.

٣١- معجم تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري، دار المعرفة، بيروت، ت: د. رياض زكي قاسم، ط١، ٢٠٠١م.

٣٢- معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٢م، ت: شهاب الدين أبو عمرو.

٣٣- الموافقات لأبي إسحاق الشاطبي، دار ابن عفان، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٩٩٧م. ت: مشهور آل سلمان.

٣٤- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي، دار الكتب العلمية، بيروت.

* * *

القسم الثالث
منوعات

١ - مؤتمرات.
٢ - رسائل علمية.
٣ - مقالات.
٤ - أخبار عامة.
٥ - إصدارات.
٦ - مسابقات.